

## ظلال الماركسية على الشيوعية العراقية

حوار : يوسف محسن مع الدكتور عبدالحسين شعبان

الحلقة الثالثة

الصورة الوردية للاشتراكية لدى فهد تخفي تطبيقات بيروقراطية استهلكت التنظيم الشيوعي

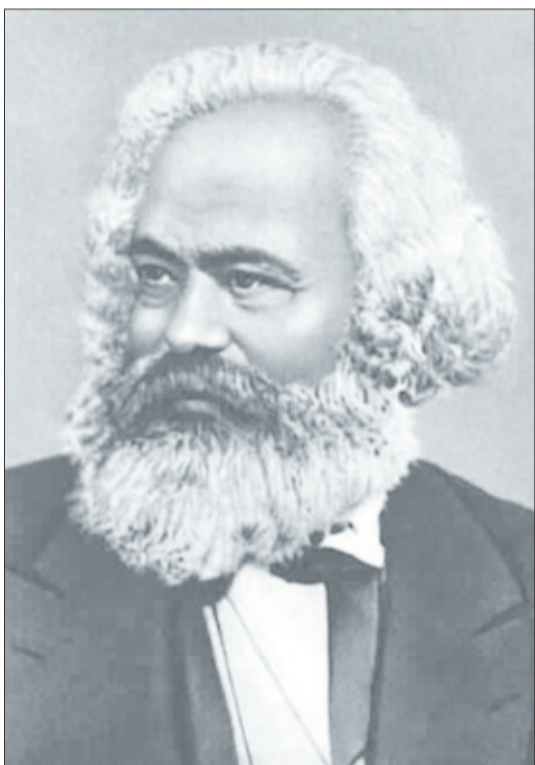
# امتدادات موصلية وتنظيمات بصرية وراء انبثاق الحزب الشيوعي العراقي



حسين الشبيبي



سلام عادل



كارل ماركس

**على الرغم من أن فهد كان في السجن عشية اندلاع النقاش والجدل حول القضية الفلسطينية، وكان له في البداية رأي واضح بخصوص عروبة فلسطين وأحقية سكانها الأصليين وموقفه النقدي من المهاجرين اليهود إليها، مشيراً إلى أن اليهود ليسوا أمة، لكن هذا الموقف لم يظهر لاحقاً، لاسيما بعد تأييد الاتحاد السوفيتي لقرار التقسيم**

تاريخ يوسف سلمان يوسف (فهد) الفكري والسياسي لم تتم دراسته ضمن التاريخ الوطني العراقي، بالرغم من أنه يشكل الحيز الحيوي من تاريخ الفكر السياسي العراقي، وأقصد هنا دراسة (يوسف سلمان يوسف) من وجهة نظر نقدية متحررة من القراءة الحزبية التقريضية، وإخضاع مشروعته إلى التفحص النقدي وتجاوز التصنيفات التي وضعتها كما يشير إلى ذلك د. كاظم حبيب وزهدي الداودي، حب وتقديس يوسف سلمان يوسف بسبب دوره التأسيسي للحزب الشيوعي العراقي والطريقة التي استشهد بها، إضافة إلى الصيغة التي عملت بها الشيوعية العالمية والعربية في تحويل الزعماء السياسيين المؤسسين إلى الخيال الأسطوري، والتصنيف الثاني هي المحق والكراهية والتشويه التي تعرضت له شخصية يوسف سلمان يوسف من أشخاص انتقلوا من المؤسسة الشيوعية العراقية إلى صف المناوئين، إضافة إلى كتابات أولئك الذين يختلفون معه فكرياً وسياسياً ويعودونه عدواً طبقياً لهم. إن موضوع المراجعات والتي نعمل عليها تقوم على أساس الالتزام العقلي والأخلاقي لجهود الأشخاص والمؤسسين والرعييل الأول في نقل الأفكار العالمية ودمج العراق في الحداثة، وفي هذا الجزء، تناقش الماركسية العراقية وأعمال يوسف سلمان يوسف التي لم تقدم أي شكل من أشكال المعرفة السياسية، وإنما قدم في أغلب أعماله الفكرية معرفة بالسياسة الفاعلة (البراكسيس) وبقيت الماركسية العراقية التي يظهر فيها العراق كمنطقة رمادية غامضة، تابعة إلى إنتاج المعرفة من المركز السوفيتي، والتي تعدّ الماركسية اللينينية – الستالينية والتي وصلت إلى العراق، وهي تأويل قسومي روسي للماركسية الكونية، نسخة غير قابلة للجدل والقراءة والحوار، نسخة مقدسة تحوّلت وظيقتها من أداة للمعرفة إلى وظيفة أيديولوجية تتمثل في إضفاء الشرعية على المصالح الإستراتيجية للإمبراطورية السوفيتية ومدروسة كادسي الشرق وجهاز الكومنترون إلى تواجبه لهذه الإمبراطورية.

### التاويل وإعادة التاويل

□ في الماركسية العراقية تم تحويل النصوص الماركسية الام إلى نصوص مقدسة (كانت تجري عملية تاويلها وإعادة التاويل) باستمرار بوصفها تحمّل الحقيقة المطلقة ولا تقبل (صراع النزوعات) او نسبية المعرفة التاريخية ولا تسعى إلى التمازج بين الماركسية العالة والحس الشعبي العام.

– كان ستالين يقول كلما استعصي أمر علينا استعينا لينين من قبره، وكلما كانت تستعصي مسألة على لينين يستدعي ماركس من لحدّه، وهكذا فإن التعبد في النصوص كان سمة سائدة للاعتقاد الخاطي، إن ماركس هو نهاية الماركسية لا بدايتها، ونحن تم "روسة" الماركسية عبر كنيستها، وهي محاولة قام بها ستالين لإسكات معارضته الحزبية، لاسيما إزاء، تروتسكي ويوخارين وزينوفيف وغيرهم فقد تم توسيع دائرة القومية، وهكذا أصبحت اللينينية إلى الماركسية، لتصبح الماركسية اللينينية، وخلال حكم ستالين الذي استمر من العام 1924 ولغاية العام 1953 انتشرت تدريجياً صور الأربعة الكبار: ماركس، إنجلز، لينين، ستالين، وعندما انتصرت الثورة الصينية وجرت محاولة لاحقة لصينية الماركسية، فقد تم وضع صورة ماوتسي تونغ جنب صور ماركس ولينين وهكذا.

وكجزء من التراث الشيوعي، فقد كان فهد يسكّث خصومه كلما اقتبس من أبو البروليتاريا العالمية أو نسب قولاً إليه، وعندها لا بد للمناقشة أن تنتهي، حتى وإن كان القول المقتبس في غير سياقه وفي غير محله، ولعل تلك التوجهات لم تكن بعيدة عن تعليمات الكومنترون والسياسات السائدة آنذاك.

لقد تعيّننا كثيراً في محراب النصوص ونظرنا إليها بقدمية، باعتبارها غير قابلة للخطأ، فضلاً عن النقد، فلما يقل بعض المثقنين عندما يريدون بعبثاً أقوال بعض رجال الدين أو ينسخونها بطريقة لا سياق فيها وفي غير موضعها، وغالباً ما استخدم هؤلاء القادة الشيوعيين، فلما استخدم بعض رجال الدين، المثقنين والفقهاء، لأغراض سياسية وأحياناً خارج نطاق الدين، مثلما يستخدم بعض السياسيين خارج نطاق المبادئ التي يدعون إليها.

### هامشية النسخة السوفيتية

□ في الماركسية القادمة من سياسات (الكومنترون) ومدروسة كادسي (الشرق) ظلت برانية وهامشية في الثقافة العراقية، بقيت عروض بيداغوجية مبسطة لفولات في التاريخ والسياسة والاقتصاد؟

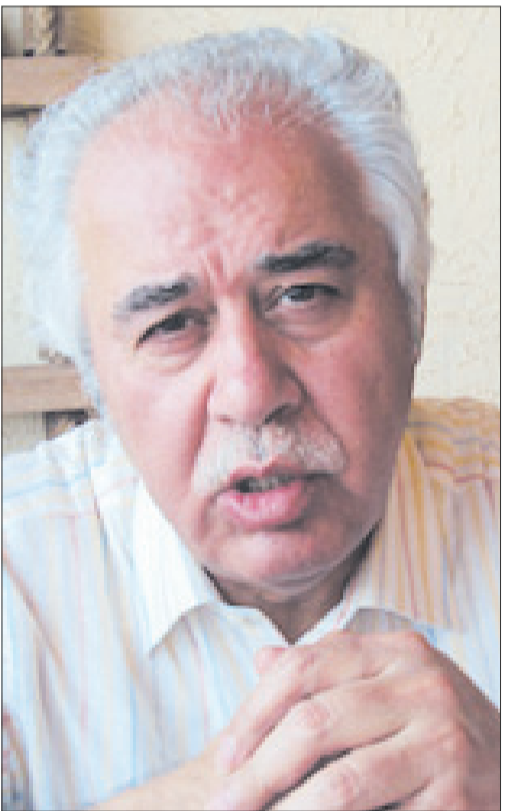
– قام فهد بمحاولات عديدة لتكفيك ما كان يقره على الواقع العراقي، ولعل أهم إنجازاته هو بناء حركة شيوعية مقدّمة وإصراره على المواصلة والاستمرارية، وقدم قوة مثل لثبات الشبّاع الذي كان مستعداً للتقديم حياته فاعاً عن مبادئه، وذلك مختتماً ومودعاً العالم أجمع بتلك العبارة الأثرية: الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من العاد "المشائق". وكانت تلك الصرخة التقوية للماركسية التي التي احتفظ بها الكثير من الشيوعيين واستحضرها لحظة الانتحار، على الرغم من جهل الحياة، لكن تقائهم من أجلها ومن أجل مثل الخير والحرة والعدالة والجمال جعله لا يهابون الموت إن اضطروا عليه.

لكن ذلك لا يمنع من أنه هناك الكثير من الأخطاء التي صاحبت فترة قيادة فهد، والتي يمكن إخصاصها إلى سياسيتها التاريخي، مثل نشيئة عبادة الفرد وازدراء دور المثقفين والتقليل من شأن القوى الوطنية الأخرى، وتحويل الحياة الحزبية الداخلية إلى حياة شبه عسكرية، حيث لا يمكن مناقشة القائد بقدر تنفيذ وإطاعة أمره وقراراته. كانت الماركسية ثورة على أيديولوجيا، ألا أنها تحوّلت إلى معتقد أيديولوجي محدد ومتعلق لدى الكثيرين من أتباعها، الذين اكتفوا بقرائنها، كما توصل إليه ماركس، دون أن يستمروا في تطبيق قراءه الماركسية كمنهج للجدل وإمكانية تطبيقه على ماركس نفسه، أي أن الأجد هو قراءة المنهج الذي قرأ به ماركس ماركسية، وواقع المجتمعات الأوروبية، ويوجب هذا المنهج بإمكاننا قراءة واقع مجتمعاتنا العربية، ولكن بعضنا قد وقع في فخ قراءة فهد ماركس بعد تحنيته وترك ماركسية وجدليته جانباً، لدرجة اقرب إلى موتها، لاسيما باندهار الأخطاء وغياب النزوع إلى التحرر وضعف الإرادة وتعمل الاستقلالية، وهي بلا أدنى شك التحدّول من شأن القوى الوطنية الأخرى، وتحويل العمل إلى مقولات اقرب إلى "المليات" حتى وإن كانت "صائبة" لكنها في غير محلها وفي قسم كبير منها دون روح، أو تكون قد فقدت عافيتها بعد أن تجاوزها الزمن.

تاريخ يوسف سلمان يوسف (فهد) الفكري والسياسي لم تتم دراسته ضمن التاريخ الوطني العراقي، بالرغم من أنه يشكل الحيز الحيوي من تاريخ الفكر السياسي العراقي، وأقصد هنا دراسة (يوسف سلمان يوسف) من وجهة نظر نقدية متحررة من القراءة الحزبية التقريضية، وإخضاع مشروعته إلى التفحص النقدي وتجاوز التصنيفات التي وضعتها كما يشير إلى ذلك د. كاظم حبيب وزهدي الداودي، حب وتقديس يوسف سلمان يوسف بسبب دوره التأسيسي للحزب الشيوعي العراقي والطريقة التي استشهد بها، إضافة إلى الصيغة التي عملت بها الشيوعية العالمية والعربية في تحويل الزعماء السياسيين المؤسسين إلى الخيال الأسطوري، والتصنيف الثاني هي المحق والكراهية والتشويه التي تعرضت له شخصية يوسف سلمان يوسف من أشخاص انتقلوا من المؤسسة الشيوعية العراقية إلى صف المناوئين، إضافة إلى كتابات أولئك الذين يختلفون معه فكرياً وسياسياً ويعودونه عدواً طبقياً لهم. هنا حوار حول الفكرة الماركسية والتطبيقات الأولى لها في العراق بقيادة يوسف سلمان (فهد) أول سكرتير للحزب الشيوعي العراقي منذ تاسيسه عام 1934، مع الكاتب والباحث عبدالحسين شعبان.



من اليمين: زكي بسيم وفهد قبيل اعدامهما عام 1948



عبد الحسين شعبان



شارع بغداد عام 1937

مهيمن على المشهد، ولعل بعض من رفاقنا لا زال أسيراً للماضي ولم يتحرر من عادة انتظار التعليمات حتى بعد غياب الاتحاد السوفيتي.

### عروض مدرسية

□ في الماركسية القادمة من سياسات (الكومنترون) و (مدروسة كادسي الشرق) ظلت برانية وهامشية في الثقافة العراقية، بقيت عروض بيداغوجية مبسطة لفولات في التاريخ والسياسة والاقتصاد؟

– بقدر ما يصح القول إن برانية وهامشية، إذا أخذناها منظوراً كادسي الشرق ظلت برانية وهامشية، إذا أخذناها منظوراً إليها من زاويتها الفكرية بوجانبها الفلسفية والاجتماعية والتاريخ والسياسة والاقتصاد؟

عزير شريف الذي كان موقفه معارضاً للتقسيم، وكانت له نظرية خاصة واستنتاجات غير صحيحة، وفي رسالة أخرى كتب إلى مالك سيف المسؤول الأول للحزب معترضاً على استخدام مصطلح "القومية اليهودية"، واعتبره استخداماً غير صحيح، ولكنه برز موقف الاتحاد السوفيتي قبول بضعة مئات من آلاف اللاجئين اليهود، واعتبرها من سكانها، ألا أنه لم يتمكن من اعتباره قومية، بل أخضع موقف السوفيت إلى ذريعة المزامرات والمشاريع الاستعمارية، مركزاً على الغاء الانتداب البريطاني وجملاء الجيوش الأجنبية وتشكيل دولة ديمقراطية وطلب استطلاع موقف الأحزاب الشيوعية في سوريا وفلسطين لتعيين الموقف، لكن جريدة الحزب آنذاك بدأت بنشر المقالات المؤيدة لقرار التقسيم وهو ما مكسبته العرائش التي كسبتها شرية التحقيقات الجانبية عند اعتقال مالك سيف ونهوضا صديق "الذي أعيد مع فهد وكذلك ساسون دلال الذي استلم القيادة بعدهما وأعيد هو الآخر لاحقاً، وكان زكي خيري قد كتب لاحقاً كراساً من السجن انتقد فيه زكي موقفه معارضاً للتقسيم، تلك فترة عصيبة فهد في السجن وغير قادر على اتخاذ موقف في قرار التقسيم كان صحيحاً، بليلين أن مواقف الآخرين لا تات بالنتائج المرجوة لتحرير فلسطين، كانت في اواسط الثمانينات قد ألقت محاضرة في دمشق ويورثت حول القراءة الاجتماعية للموقف السوفيت السوفيات بشكل خاص والموقف الماركسي بشكل عام من قرار التقسيم، وكانت قد اثار ردود فعل متباينة، لاسيما وأن الجمود العقائدي واللا، الملحق للمركز الأممي كانا

موقفاً من قرار التقسيم، إضافة إلى موقفه من قرار التقسيم وقام دولة إسرائيل في 15/أيار 1948. وقد مارس هذا الحزب للاتفاق مع السوفيت ضغوطاً لحمل الأحزاب الشيوعية العربية الراضة لقرار التقسيم على تغيير مواقفها، وكان قد وصل مبعوثاً عن الحزب الشيوعي الهندي إلى بغداد من جانب الكونغورم لحمل الحزب الشيوعي على تغيير موقفه من قرار التقسيم، وهو ما نقله شريف الشيخ أحد الكوادر والقيادات لاحقاً عن لغائه الدكتور راناجت كورما الذي سله عن موقفه وموقف الحزب من قرار التقسيم مستعرضاً عليه مواقف الماركسية والأحزاب الشيوعية العربية وغير العربية، وكان فهد قد تحفظ على كراس "ضوء" على القضية الفلسطينية، فأضافة إلى أن اعتقاله كان قد تزامن مع صعود النشاط الصهيوني والدولي بخصوص فلسطين، فإن غياب قيادته أدّى إلى ابتعاد الحزب عن انخراطه في القضية الفلسطينية لدرجة أن الشيوعيين ظلوا لفترة يتفكرون أو يتحسسون من مواجهة مثل هذه الموقف، وإن لم يطلحوا من الزغمان عنها، كانوا يتسبون كادسي تعبيراً عما هو سائد، بل حتى متقدم على الأفكار السائدة آنذاك خصوصاً في البلدان العربية، وسرعان ما نقلها المثقفون حتى طبعتها الستالينية، وخصوصاً في الألب التحديدية باسم الواقعة الاشتراكية إزاء، فقضايا الألب والفن، على الرغم من تشدد مدرسة جانوف إزاء المثقفين والمبدعين وما مثلته آنذاك من رؤية مترزمة، لدرجة أنها تدخلت في تفاصيل الخير والجمال والحق ومكافحة الاستغلال والاستعمار. وبالمناسبة فقد كان الإسم الأول للحزب الشيوعي "لجنة مكافحة الاستعمار والانتشار" حيث تأسس في 31 آذار 1934 واتحاد حركات بغداد مع التنظيمات الجنوبية (البصرة) والناصرية بشكل خاص وبعض الامتدادات الموصلية والناصرية إسمه الحزب الشيوعي بعد نحو عام وانتخب الخياط عاصم فليح أميناً عاماً للحزب وأصدر جريدة باسم كفاح الشعب في العام 1935، وهو ما ناقشته عند تقديمي لكتاب شوبك خزندار "الحزب الشيوعي العراقي- رؤية من الداخل"، الشور في مجلة المستقبل العربي، وقد تعرض الحزب خلال تاريخه إلى عدد من الانشقاقات والتكلاّت، وكانت الشيوعية لا تجد لها مكاناً في العراق، ولعل بعضهم الفكرة الستالينية إزاء مفهوم الحزب تلك التي دفع بها لينين في كراسه "ما العمل" رداً على الفكرة المارتوفية، التي أنه طرح فهد في واقع التجربة الكونية إزاء موقف الأقلية الصائبة من الأقلية الخاطئة، وهي طرحه اللينيني قاربها من موقف البولشفيك من الموقف، ثم هدائية العمل الحزبي أي شرعية وجود حزب شيوعي وانتهازيه الآخر في حال وجود أكثر من تنظيم، مركزاً على جذور

□ لماذا تم الاعتماد على المركز السوفياتي في إنتاج المعرفة الفلسفية والسياسية وتحديد الموقف من الانتقادات التاريخية؟

– وعلى الرغم من أن فهد كان في السجن عشية اندلاع النقاش والجدل حول القضية الفلسطينية، وكان له في البداية رأي واضح بخصوص "عروبة فلسطين وأحقية سكانها الأصليين وموقفه النقدي من المهاجرين اليهود إليها، مشيراً إلى أن اليهود ليسوا أمة، لكن هذا الموقف لم يظهر لاحقاً، لاسيما بعد تأييد الاتحاد السوفيتي لقرار التقسيم، ويمكن القول إن اعتقال فهد ورفاقه في المكتب السياسي حسين الشبيبي وزكي بسيم بعد تاريخياً، فاصلاً في موقف الحزب الشيوعيين من القضية الفلسطينية، فأضافة إلى أن اعتقاله كان قد تزامن مع صعود النشاط الصهيوني والدولي بخصوص فلسطين، فإن غياب قيادته أدّى إلى ابتعاد الحزب عن انخراطه في القضية الفلسطينية لدرجة أن الشيوعيين ظلوا لفترة يتفكرون أو يتحسسون من مواجهة مثل هذه الموقف، وإن لم يطلحوا من الزغمان عنها، كانوا يتسبون كادسي تعبيراً عما هو سائد، بل حتى متقدم على الأفكار السائدة آنذاك خصوصاً في البلدان العربية، وسرعان ما نقلها المثقفون حتى طبعتها الستالينية، وخصوصاً في الألب التحديدية باسم الواقعة الاشتراكية إزاء، فقضايا الفلسفة والاجتماعية والاقتصادية، لكنها في الوقت نفسه كانت تعبيراً عما هو سائد، بل حتى متقدم على الأفكار السائدة آنذاك خصوصاً في البلدان العربية، وسرعان ما نقلها المثقفون حتى طبعتها الستالينية، وخصوصاً في الألب التحديدية باسم الواقعة الاشتراكية إزاء، فقضايا المثقفين والمبدعين وما مثلته آنذاك من رؤية مترزمة، لدرجة أنها تدخلت في تفاصيل الخير والجمال والحق ومكافحة الاستغلال والانتشار.

### الاشتراكية صورة وردية

□ من خلال قرائنك أعمال يوسف سلمان يوسف ما هو تصوره عن الاشتراكية، الماركسية، هل لديه تصور واضح؟ أو فهم مشوش بغضام تلك الأفكار؟

– كانت صورة الاشتراكية وردية لدى فهد بما فيها التطبيقات البيروقراطية، والتي حرص على تقديمها باعتبارها مثالية وتموجية ومويدلاً، دون أن يتم الحديث عن مصاعبها وتحدياتها وأخطائها، باستثناء الحديث عن الدور الخاص لتحريرها من طرف الإمبريالية العالمية، وكانت الاشتراكية أقرب إلى حزمة من المبادئ السياسية والجدلية التي تمنح الإنسان الوعد بالسعادة والرفاه والعدالة، والاستغلال وتحرره من الظلم، وقد أشرت إلى طغيان الأسلوب الدراسي في عرضها، لاسيما عبر معقد ويعب بالكثير من المناقشات، البيئية والطائفية والقيومية والغربية والتشكيلات الاجتماعية القطاعية والعشائرية والتدخلات الخارجية والمعاهدات والاتفاقيات والمحصف والمثلة، وبالأخص مع بريطانيا، سياسياً واقتصاديًا وعسكرياً وأمنياً وغير ذلك.

ولعل ماركس هو من تحدّث عن "الوعي الزائف" في كتابه "الأيديولوجيا الألمانية" بمعارضة مفهوم هيجل الوعي "الشقي" عندما تكون الأيديولوجيا شكلاً نسقياً محمداً، فإنها تصبح وعياً زائفاً لا يعكس الصراع الداخلي منها ولا يعرض لنا أصدانها.

قلت في كتابي تحطيم المرابا: ماذا يحدث لو كان ماركس مفهّم (أي قدّمه كمفهوم) كل شيء، أو قال فيه، فلن نجد شي، بعد ذلك مثلما اختلف الناس بعد موت النبي محمد، حينها خرج أبو بكر الصديق على الناس ليحول قولته الشهيرة "من كان بعيد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان بعيد الله، فإن الله حي لا يموت" وسواءً كان الأمر لهذه الحالة أو للحالة الأولى، فإن الحياة تطوّر وتحتاج دائماً إلى التجديد والتغيير والانفتاح، ولن تصمد القوالب والنسقيات، بل ستتحول إلى بياس في حين أن الحياة تستمضي، مثل نهر جارف وبحر لا يستكين.

□ في خلال قرائني الوضعية النقدية للماركسية فإن ماركس ساهم بمحاولة إجرائية سهونة بطرف ماركس الشخصية من جهة، بالقراءة والتقيب والبحث، ومن خلال منهج إزال صائبا ويمكن استخدامه، لكن ماركس لم يكن ملتماً أو مروجاً أو دعائياً كما يتصوره أصحابنا المثبتين بأنباي الماركسية من "التحريكس"، بل باحثاً ومفكراً وإنساناً عظيماً، لكنه وفي الوقت نفسه كان يحظى ويصيب أيضاً مثل كل البشر دون مقدسات، وإن كان قد تمتع بقدرات فكرية هائلة وموهبة نادرة وعقل جبار. أما فهد فقد حاول تمثيل وهضم أفكار ماركس، وإن كان بطبعها الستالينية التي وصلتنا، لاسيما التشبث بتقليدها أو استنساخها كنه في الوقت نفسه امتلك قدرات تنظيمية كبيرة وبسالة نادرة ومعرفة عميقة بالجمهور العراقي، التي صاحبت فترة قيادة فهد، والتي يمكن إخضاعها إلى سياقاتها التاريخي، مثل نشيئة عبادة الفرد وازدراء دور المثقفين والتقليل من شأن القوى الوطنية الأخرى، وتحويل الحياة الحزبية الداخلية إلى حياة شبه عسكرية، حيث لا يمكن مناقشة القائد بقدر تنفيذ وإطاعة أمره وقراراته. كان الحسين شعبان، كانت صورة الاشتراكية

### تصنيفات

دعا فهد لاحترام الأديان والمقوس والشعائر الدينية، وطلب من الرفاق في السجن دراسة القرآن والاحتكاك برجال الدين ومحاورتهم بروح إيجابية، فهد حاول تمثيل وهضم أفكار ماركس، وإن كان بطبعها الستالينية التي وصلتنا، لاسيما التشبث بتقليدها أو استنساخها كنه في الوقت نفسه امتلك قدرات تنظيمية كبيرة وبسالة نادرة ومعرفة عميقة بالجمهور العراقي، التي صاحبت فترة قيادة فهد، والتي يمكن إخضاعها إلى سياقاتها التاريخي، مثل نشيئة عبادة الفرد وازدراء دور المثقفين والتقليل من شأن القوى الوطنية الأخرى، وتحويل الحياة الحزبية الداخلية إلى حياة شبه عسكرية، حيث لا يمكن مناقشة القائد بقدر تنفيذ وإطاعة أمره وقراراته. كان الحسين شعبان، كانت صورة الاشتراكية